لَمَحَاتٌ عِلْمِيَّةٌ وَقُطُوفٌ تَفْسِيرِيَّةٌ

د. محمد دودح

الباحث العلمي بالهيئة العالميــة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة

لَمَحَاتٌ عِلْمِيَّـــةٌ وَقُطُوفٌ تَفْسِيرِيَّةٌ

د. محمد دودح

الباحث العلمي بالهيئة العالميـــة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

المُقَدِّمَة

لا خلاف في المنهج بين مفسري اليوم للآيات الكونية ومفسري الأمس؛ سوى تَجَلِّي بعض خفايا الخليقة بعد اكتشاف المنظار والمجهر وتطور وسائل الرصد، لتسطع البينة على أن هذا القرآن هو الحق، ولو كان مُفَسِّرِي الأمس مُعَاصِرِين لَسَارَعُوا إلى تفسير الآيات الكونية بالحقائق العلمية، فقد فاضت كتبهم ومن سار على دربهم بوجوه من الإعجاز في القرآن الكريم.

قَالَ الْفَخر الرازي: ""كَانَ عمر بن الحسام يقْرَأ كتاب المجسطي على عمر الْأَبْهَرِيّ فَقَالَ لَهما بعض الْفُقَهَاء يَوْمًا: مَا الَّذِي تقرأونه؟ فَقَالَ الْأَبْهَرِيّ أفسر قَوْله تَعَالَى {أفلم ينْظرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقهم كَيفَ بنيناها} فَأَنا أفسر كَيْفيَّة بنائها، وَلَقَد صدق الْأَبْهَرِيّ فِيمَا قَالَ؛ فَإِن كل من كَانَ أَكثر توغلا فِي بحار الْمَخْلُوقَات كَانَ أَكثر علمًا بِجلَال الله تَعَالَى وعظمته"[1]، والمجسطي هذا كتاب قديم في الفلك والرياضيات ألفه بطليموس حوالي عام ١٤٨م في الاسكندرية، وترجمه إلى العربية حنين بن إسحاق العبادي في عهد المأمون حوالي عام ٨٢٧م[2]، فما بالك بالمجلدات اليوم المزدانة بمفاخر الكشوف ومآثر العلوم!.

وتأتي الملامح العلمية بعفوية وتلطف لا يلفت عن غرض الإيمان، ولا مجال لاستنباط وجه علمي بمعزل عن تفهم بديع أساليب البيان، والخشية من تغير الحقائق العلمية مع الزمن حرص محمود؛ لكن الحقائق ثوابت لا تتغير مع الزمن كظلمة البحر العميق، والقول بأن الاجتهاد قد يصيب وقد يخيب صحيح؛ ولكن حرص المتضلعين بعلوم اللغة والشريعة والطبيعة كفيل بالتصويب.

والتفسير بالعلوم يُوَضِّح ما انتظرته الأيام ليتجلى ويسطع ويتحقق وعد جازم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ص:٨٧و٨٨، ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ٤١فصلت:٥٣، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ٢٧النمل:٩٣، ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ. لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ٦الأنعام:٦٦و٦٧، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ ١٠يونس:٣٩، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ٣٨ص:٨٧و٨٨.

د. محمد دودح

[1] فخر الدين الرازي؛ مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الثالثة؛ ١٤٢٠هـ (١٤\ ١٥٤).

[2] موسوعة ويكيبيديا والشبكة الدولية.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ ٢البقرة:٧.

Paragraph الفَقْرَة

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ٢البقرة:٦و٧،

keywords كَلِمات إِرْشَادِيَّة

﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾، ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾، ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾.

Translation (تَفْسِيرِيَّة) تَرْجَمَة

(As if) **ALLAH has set a seal on their hearts and on their hearing** (i.e. they are closed from accepting Allah's Guidance)**, and on their visions there is a covering** (so; they cannot see the signs of Allah's power & Wisdom in all what He has created)**.**

لمَحَات بَيَانِيَّة وعِلْمِيَّة

Eloquent & Scientific Hints

حُكِيَ أن عربيًا قد غفي في الشمس فجاءت زوجته وظللته من الشمس؛ فانتبه وقال: "شَمْسٌ تُظَلِّلُنِي مِنَ الشَّمْسِ"[٣]، فجعلها هي والشمس سواء بجامع البَهَاء، والتعبير عن الشيء بما يُماثله في وجوه تُزِيد المقاربة وتجعله كأنه هو؛ ذلك هو التمثيل البليغ، والقرآن الكريم قد فاجأ العرب بتنوعات مبهرة من أساليب البلاغة وروائع الفصاحة في البيان، وخاطبهم بأمثال لا يَحَارُ في مغزاها ويَحِيد عنه معناها؛ من أدرك بلاغته في التعبير، وادَّخَرَ للعَالِمِين بالواقع نَصِيب: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ ٢٩العنكبوت:٤٣، وفي مأدبة لا تُغلَق أبوابها تَجِد أبصارًا قد حُجِبَت عنها رؤية الضوء فلم تعد ترى؛ وذلك قبل أن يُسَجِّل الحسن بن الهيثم (٣٥٤ - ٤٣٠هـ) بعد قرون من عصر النبوة في كتابه "المناظر" للمرة الأولى في التاريخ أن العين أداة استقبال للضوء المُنعكس على الأشياء، مخالفًا الوهم اليوناني القديم الذي ظل سائدًا منذ أرسطو طاليس (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م)؛ القائل بأن العين هي التي تُصدر الضوء[٤].

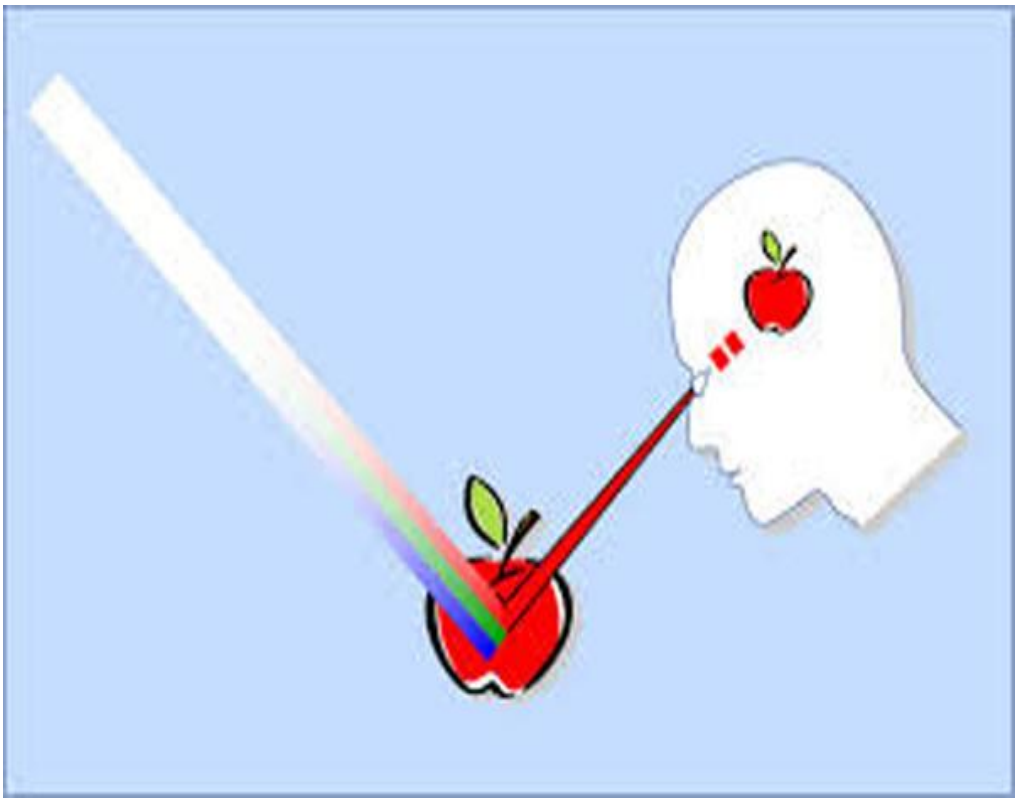

تستقبل العين (أداة الإبصار) الضوء المنعكس على الأشياء
وترسله إلى مراكز الإبصار في الدماغ؛ فيشاهدها الإنسان.

[٣] محمد الطاهر بن عاشور؛ التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر تونس؛ ١٩٨٤ (١١ ٣١٤).
[٤] موسوعة ويكيبيديا العالمية.

قال محمد رشيد رضا: "الَّذِي يُعْرِضُ عَنِ النُّورِ مَعَ الْعِلْمِ بِهِ وَيُغْمِضُ عَيْنَيْهِ كَيْلَا يَرَاهُ.. مَاذَا يُفِيدُهُ النُّورُ!.. مَاذَا عَسَاهُ يُفِيدُهُ النُّورُ مَهْمَا سَطَعَ؛ أَوْ يُؤَثِّرُ فِيهِ الضَّوْءُ مَهْمَا ارْتَفَعَ!"[٥].

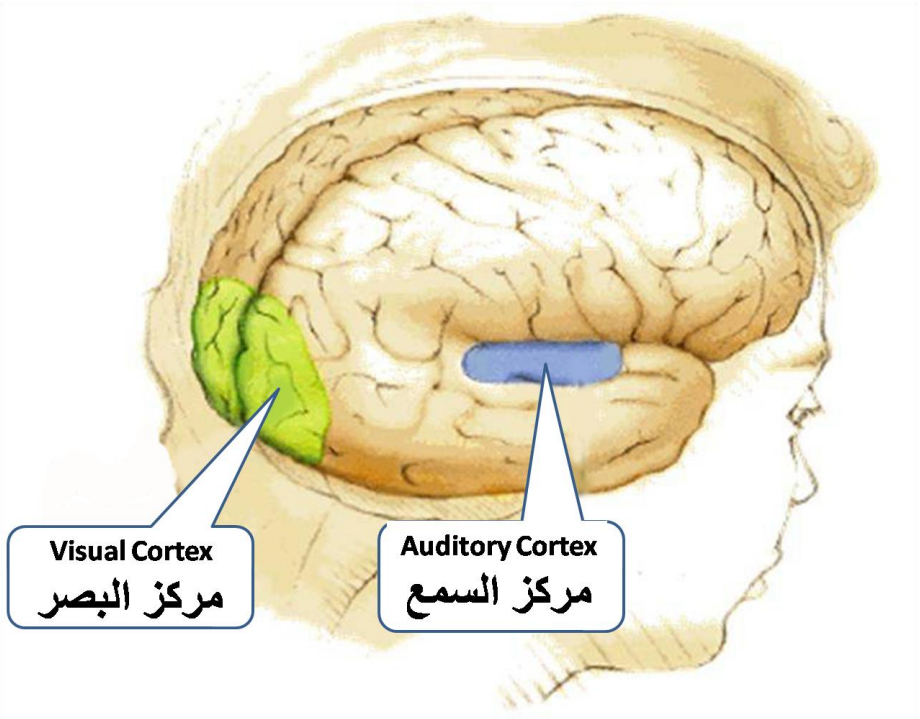

جاء السمع والبصر في النظم بنفس ترتيب مراكزهما بالمخ حيث يقع مركز السمع في الأمام؛ ومركز البصر في الخلف.

[٥] محمد رشيد رضا؛ تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب؛ ١٩٩٠م (١١ ١٢٠).

وبخلاف أداتي الاستقبال: العين والأذن؛ يتعلق لفظ السمع بأصل الجهاز السمعي ومركزه؛ وبالمثل يتعلق لفظ البصر بأصل جهاز الإبصار، وكل منهما يقع بالدماغ، وفي كل المواضع بالنظم تسبق العين الأذن وفق الوضع التشريحي، والمفاجأة أن ترتيب الجهازين بالنظم موافق كذلك للترتيب المخبوء بالدماغ؛ حيث يسبق مركز السمع مركز البصر.

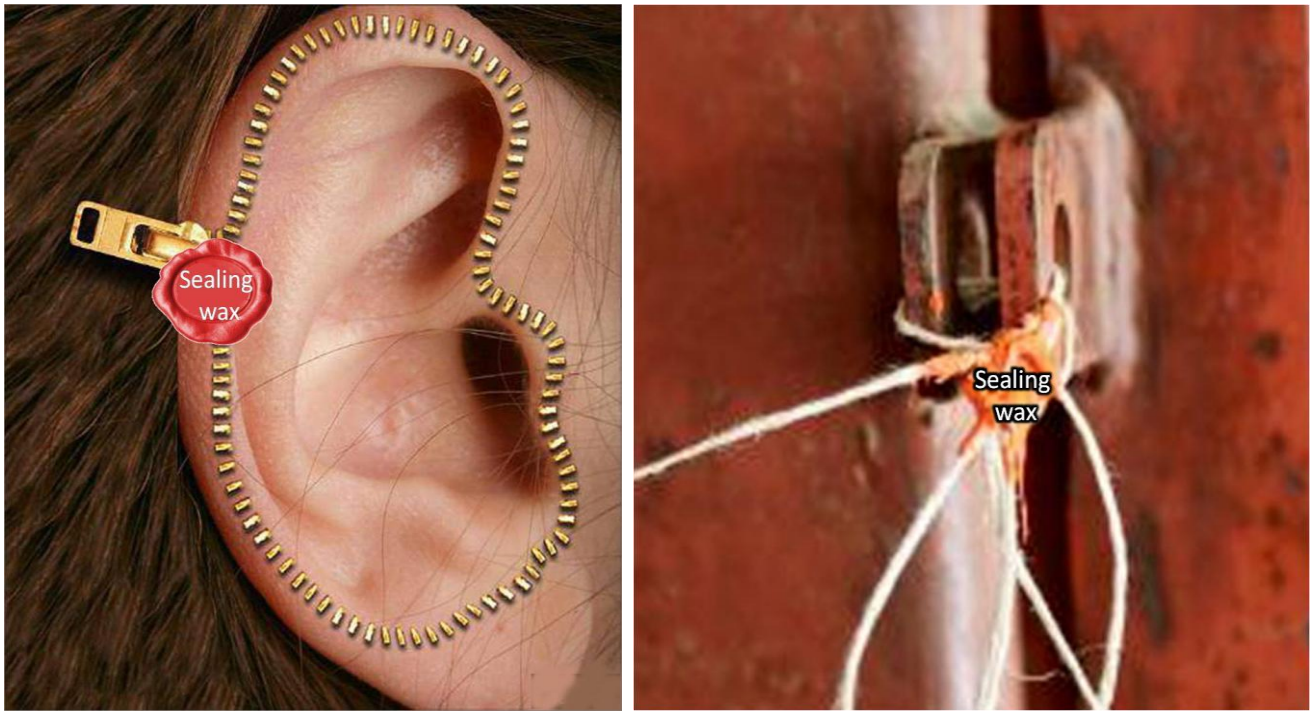

الصورة البيانية لتجسيد دوام العناد؛ هي الختم على السمع فلا تلجه موعظة كما يختم على أبواب المداخل بشمع أحمر فلا يلجها شيء.

وتصوير الأداة الخارجية للإستقبال في جهاز السمع مغلقة كأبواب المداخل تُغلق بالشمع الأحمر يعني تأبيد العناد، واستمدادًا من التمثيل يعني التشبيه ضمنيًّا أن الآذان مجرد مداخل وأن جهاز السمع والوعي بالمسموع في الداخل.

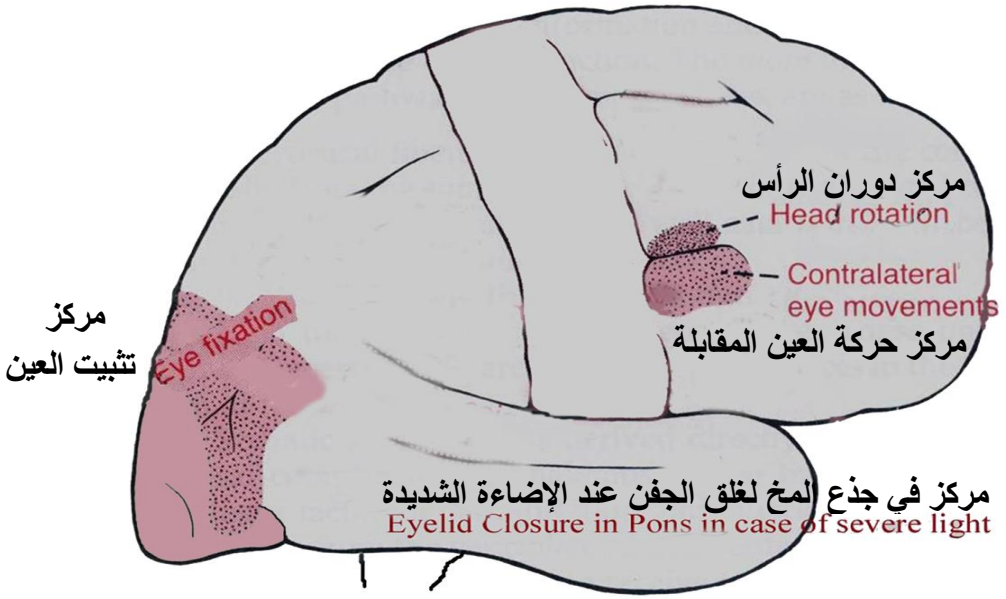

بخلاف مركز سمع واحد في كل جهة في الدماغ؛ توجد جملة مراكز مُصاحبة لمركز الإبصار: مركز لتثبيت العين في المنطقة البصرية خلف الدماغ، ومركز للالتفات وتحريك الرأس، ومركز لتحريك العين المقابلة، ومركز في جذع المخ لغلق الجفن عند الإضاءة الشديدة.

ولا يستقبل الإنسان المناظر حوله إلا من جهة واحدة؛ فتتعدد المشاهد باختلاف الجهات، وعلى عكس مسار موجات الضوء الأقرب للاستقامة؛ تنحني موجات الصوت كثيرًا؛ فتستقبلها الأذن من كل الجهات بلا حاجة للالتفات، فسمع الكل واحد للصوت بينما تتعدد المشاهد، ويُصاحب مركز الإبصار في الدماغ جملة مراكز لتوجيه الرأس والعينين؛ بينما لا يحتاج مركز السمع إلى توجيه، ويَتَأَلَّق النظم ويُوَحِّد السمع ويجمع الأبصار، وما كان لبشر في القرن السابع الميلادي أن يُراعي الموافقة لطبيعة الصوت في الانحناء وطبيعة الضوء في الاستقامة وتركيب المراكز الخفية بالدماغ.

صورة تخيلية لقلب مغلق مختوم بالشمع الأحمر؛ فلا تدخله موعظة،
صورة بيانية تعني التأبيد للإعراض والعناد؛ تجسيدًا لمعنوي بحسي.

صور بيانية جذابة ومشاهد بديعة لتجسيد الإعراض وتأبيد عدم الاستجابة، وعلى نحو "شمس تظللني"؛ جاءت القلوب التي في الصدور كناية عن العقول، وجوهر الإنسان إذن هو الفكر والبصيرة والعقل الرشيد، فإذا عَمِيَت بصيرة إنسان كان مصيره الهلاك، كما إذا فسد القلب هلك الجسد؛ فالكناية بالقلب بيان للمكانة لا المكان، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ ٥٠ق:٣٧؛ صريح في أن القلب كناية عن العقل الرشيد لأن كل إنسان له قلب.

قال سيد قطب: "يصف حالة عقلية أو معنوية؛ وهي حالة عدم الاستفادة مما يسمعه بعضهم من الهدى، وكأنهم لم يسمعوا به..، فيجعل كأنما هناك حواجز مادية تفصل بينهم وبينه؛ مثل: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ الشعراء:٢١٢، أو: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا..﴾ الأنعام:٢٥، أو: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ محمد:٢٤، أو: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ يس:٩، أو: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ..﴾ البقرة:٧..، وكلها تُجَسِّم هذه الحواجز المعنوية؛ كأنما هي موانع حسية، لأنها في هذه الصورة أوقع وأظهر"[٦].

[٦] سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي؛ التصور الفني في القرآن، دار الشروق الطبعة السابعة عشرة (ص٨١).

قُطُوف تَفْسِيرِيَّة

Interpretation picks

قال القرطبي: "الْخَتْمُ.. معناه التَّغْطِيَةُ عَلَى الشَّيْءِ وَالِاسْتِيثَاقُ مِنْهُ حَتَّى لَا يدخله شي، وَمِنْهُ خَتَمَ الْكِتَابَ وَالْبَابَ..، فَالْخَتْمُ عَلَى الْقُلُوبِ عَدَمُ الْوَعْيِ عَنِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ..؛ وَعَلَى السَّمْعِ عَدَمُ فَهْمِهِمْ لِلْقُرْآنِ..، وَعَلَى الْأَبْصَارِ عَدَمُ هِدَايَتِهَا لِلنَّظَرِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ وَعَجَائِبِ مَصْنُوعَاتِهِ، هَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِهِمْ"[٧]، وقال الرازي: "وَجَعْلُ الْقَلْبِ (تعبيرًا) عَنِ الْعَقْلِ جَائِزٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾؛ أَيْ لِمَنْ كَانَ لَهُ عَقْلٌ"[٨]، وقال الراغب الأصفهاني: "خص البصر بالغشاوة تنبيهاً على أن النور ممنوع منه، فلا يحصل به الانتفاع، وأيضاً فإن ما يدركه القلب والسمع لا يختص بجهة دون جهة..؛ فجعل.. عليهما الختم الذي يمنع من جميع الجهات، وجعل ما يمنع البصر..: الغشاوة المختصة بجهة دون جهة، وأكثر ما ذكر الله القلب فالمقصود به العقل والمعرفة"[٩].

وقال ابن عاشور: "جَعَلَ قُلُوبَهُمْ؛ أَيْ عُقُولَهُمْ، فِي عَدَمِ نُفُوذِ الْإِيمَانِ وَالْحَقِّ وَالْإِرْشَادِ إِلَيْهَا، وَجَعْلِ أَسْمَاعِهِمْ فِي اسْتِكَاكِهَا عَنْ سَمَاعِ الْآيَاتِ وَالنُّذُرِ، وَجَعْلِ أَعْيُنِهِمْ فِي عَدَمِ الِانْتِفَاعِ بِمَا تَرَى مِنَ الْمُعْجِزَاتِ وَالدَّلَائِلِ الْكَوْنِيَّةِ، كَأَنَّهَا مَخْتُومٌ عَلَيْهَا وَمَغْشِيٌّ دُونَهَا..، وَكُلُّ ذَيْنَكَ مِنْ تَشْبِيهِ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ..، وَالْمُرَادُ مِنَ الْقُلُوبِ هُنَا الْأَلْبَابُ وَالْعُقُولُ..، وَالْعَقْلُ.. مَقَرُّهُ الدِّمَاغُ لَا مَحَالَةَ..، وَقَدْ تَكُونُ فِي إِفْرَادِ السَّمْعِ لَطِيفَةٌ.. فَالْجَمَاعَاتُ إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ سَمِعُوهُ سَمَاعًا مُتَسَاوِيًا وَإِنَّمَا يَتَفَاوَتُونَ فِي تَدَبُّرِهِ وَالتَّدَبُّرُ مِنْ عَمَلِ الْعُقُولِ؛ فَلَمَّا اتَّحَدَ تَعَلُّقُهَا بِالْمَسْمُوعَاتِ جُعِلَتْ سَمْعًا وَاحِدًا..، لِأَنَّ السَّمْعَ تَرِدُ إِلَيْهِ الْأَصْوَاتُ الْمَسْمُوعَةُ مِنَ الْجِهَاتِ السِّتِّ بِدُونِ تَوَجُّهٍ؛ بِخِلَافِ الْبَصَرِ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى التَّوَجُّهِ بِالِالْتِفَاتِ إِلَى الْجِهَاتِ"[١٠].

[٧] شمس الدين القرطبي؛ الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وعبد السلام أطفيش، دار الكتب المصرية الطبعة الثانية؛ ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م (١\ ١٨٥).

[٨] فخر الدين الرازي؛ مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الثالثة؛ ١٤٢٠هـ (١٥\ ٤٧٣).

[٩] الراغب الأصفهاني؛ تفسير الراغب، تحقيق د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب جامعة طنطا، الطبعة الأولى؛ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م (١\ ٩٢).

[١٠] محمد الطاهر بن عاشور؛ التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر تونس؛ ١٩٨٤ (١\ ٢٥٤).

Scientific Field الحَقْل العِلْمِي

Medicine

علم الطب

Subject المَوْضُوع

Functional Brain centers

المراكز الوظيفية بالمخ

Related Texts نُصُوص مُتَعَلِّقَة

- **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ ٦الأنعام:٢٥.**
- **﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ ٢٦الشعراء:٢١٢.**
- **﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ٣٦يس:٩.**
- **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ. أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ٤٧محمد:٢٣و٢٤.**
- **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ٥٠ق:٣٧.**